﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 6]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

ربط إحاطة علم الله بكلّ شيء، بتصوير البشر في الأرحام وقيوميّة خالق الأنام

لَمَّا أخبر أَنَّهُ قَيُّومٌ وَقَائِمٌ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ، وَمَصَالِحُ الْخَلْقِ قِسْمَانِ: جِسْمَانِيَّةٌ وَرُوحَانِيَّةٌ؛ بيّن في هذه مَصَالِحَ الْخَلْقِ الْجِسْمَانِيَّةَ، وأَشْرَفُهَا تَعْدِيلُ الْبِنْيَةِ، وَتَسْوِيَةُ الْمِزَاجِ عَلَى أَحْسَنِ الصُّوَرِ وَأَكْمَلِ الْأَشْكَالِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾[1]، وبذلك تكون هذه الآية كالدّليل على القيُّوميَّة، لأنّه "وحده الّذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، لا معبود بحق سواه، العزيز الذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: "التّصويرُ: جعل الشَّيء على صورةٍ، والصُّورة: هيئة يكون عليها الشّيء بالتّأليف، وأصلها مِن: صارَه، يَصُوره؛ إذا أماله، فهي صورَةٌ؛ لأنَّها مائلة إلى بِنْيَةٍ بالشَّبَهِ لها"[3]، "الصُّورَةُ: ما ينتقشُ به الأعيان، ويتميّز بها من غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوسٌ يدركه الخاصَّة والعامَّة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كَصُورَةِ الإنسانِ والفرس، والحمار بالمعاينة، والثّاني: معقول يدركه الخاصّة دون العامّة، كالصُّورَةِ الَّتي اختصَّ الإنسان بها من العقل، والرَّويَّة، والمعاني الَّتي خصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/137.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 50.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/30.

الصُّورَتَيْنِ أشار بقوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾"[1]، وقولنا (صوّره)، "جعل لَهُ صُورَة مجسّمة، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وَالشَّيْء أَو الشَّخْص رسمه على الْوَرق، أَو الْحَائِط، وَنَحْوهمَا بالقلم أَو الفرجون، أَو بِآلَة التَّصْوِير، وَالْأَمر وَصفه وَصفا يكْشف عَن جزئيّاته"[2].

2) ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: مفردها الرَّحم، ويقصد به رحم المرأة، واستعير الرَّحم للقرابة؛ لكونهم خارجين من رحم واحد، يقال: رَحِمٌ ورُحِمٌ، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 81]، والرَّحمة: رقَّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وهي منطويةٌ على معنيين: الرَّحمة والإحسان[3]، والأرحام: "هي منبت الولد ووعاؤه في البطن، ورحمت المرأة رحامة، ورحمت رحمًا، إذا اشتكت رحمها بعد الولادة، ومن المجاز: رحمه الله، وهو الرّحمن الرّحيم: الواسع الرّحمة. وبينهما رحم ورُحم، قال الهذليّ:

وَلَمْ يَكُ فَظًّا قَاطِعًا لِقَرَابَةٍ *** وَلَكِنْ وَصُولًا لِلْقَرَابَةِ ذَا رُحْمِ[4]

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان قدرة الله على تصوير العباد، وهم أجنّة في الأرحام، في روعة وجمال وتمام

بيَّن في هذه الآية أنَّه سبحانه "هو وحده الّذي يصوِّركم في أرحام أمّهاتكم، كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقيٍّ وسعيد، لا معبود بحقٍّ سواه، العزيز الّذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره"[5]، لا إله إلّا هو، ولا ربّ غيره، موجدًا من عدم، ومعطيًا في كرم، وهو العزيز الّذي لا شريك له، المتفرّد بالخلق والتّصوير، وهو الحكيم في التّقدير، والكافي خلقه في التّدبير، فلا يحمد غيره، ولا يعبد سواه[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (صور).
(2) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صور).
(3) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة: (رحم)
(5) نخبة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/50.
(6) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 300.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

الدَّليل على بشريَّة عيسى عليه السلام

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملةً استئنافيةً؛ "وذلك لبيان بشريَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الله أخبر عن تصويره للبشر في أرحام الأمَّهات، وهذا أمر لا ينكره عاقل، ولا ينكر أنَّ عيسى وسائر البشر لا يقدرون عليه، ولا ينكر أنَّ عيسى عليه السلام من المصوَّرين في الأرحام، فهذه الآية تعظيم لله تعالى، وفي ضمنها الرَّدُّ على نصارى نجران"[1]، "وقد كان عيسى ممَّن صُوِّر في الأرحام، لا يدفعون ذلك، ولا ينكرونه، كما صُوِّر غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهًا؟"[2].

ومن أغراض الاستئناف؛ "بيانُ صفة القيُّوميَّة، وذلك أنَّه خُصَّ من بَين شؤون الْقَيُّومِيَّةِ تَصْوِيرُ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ؛ وَلِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضًا بِالرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى فِي اعْتِقَادِهِمْ إِلهيَّة عِيسَى مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ بِكَيْفِيَّةٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْكَيْفِيَّاتِ الْعَارِضَةَ لِلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مِنْ صُنْعِ اللَّهِ وَتَصْوِيرِهِ: سَوَاءٌ الْمُعْتَادُ، وَغَيْرُ الْمُعْتَادِ"[3].

دلالة الحَصْرِ بالإسنادِ إلى الضَّميرِ، وبالتَّعريفِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾:

دلالة الإسناد بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ تفيد الحصر والقصر على الله تعالى، فلا يدَّعي أحد أنَّ له دخلًا فيها، وأكَّد ذلك بتعريف الجزأين، "حيث دلَّ عَلَى قَصْرِ صِفَةِ التَّصْوِيرِ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّهُ كَذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ؛ إِذْ هُوَ مُكَوِّنُ أَسْبَابِ ذَلِكَ التَّصْوِيرِ وَهَذَا إِيمَاءٌ إِلَى كشف شبهة النَّصَارَى؛ إِذْ تَوَهَّمُوا أَنَّ تَخَلُّقَ عِيسَى بِدُونِ مَاءِ أَبٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ بَشَرٍ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ وَجَهِلُوا أَنَّ التَّصْوِيرَ فِي الْأَرْحَامِ؛ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ كَيْفِيَّاتُهُ؛ لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ خَلْقًا لِمَا كَانَ مَعْدُومًا، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ الْمُصَوَّرُ فِي الرَّحِمِ إِلَهًا"[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/7.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/174.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/152.

نكتةُ التَّعبيرِ بالتصويرِ والمراد شَيْءٌ آخر:

تصويرُ المخلوقين في الأرحـام من أدلَّة التوحيد

ذُكِرَ التَّصويرُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾، والمرادُ مجادلةُ وفدِ نصارى نجران في شَأْنِ عيسى عليه السلام، وما زعموه من ألوهيَّته، فكأنَّ القرآن يقول لهم: لمَّا كان عيسى مصوَّرًا في الرَّحم؛ فهو مخلوق لا خالق؛ إذْ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ صُوِّرَ فِي الرَّحِمِ"[1]، وفي هذا رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِيسَى إِلَهٌ.

إيثارُ صيغةِ المبالغةِ والمضارعِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ "بِنَاءٌ لِلْمُبَالَغَةِ مِنْ: صَارَ يُصَوِّرُ؛ إِذَا أَمَالَ، وَثَنَى إِلَى حَالٍ، وَلَمَّا كَانَ التَّصْوِيرُ إِمَالَةً إِلَى حَالٍ، وَإِثْبَاتًا فِيهَا؛ جَاءَ بِنَاؤُهُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ"[2]، ولمَّا كان الخلق والتَّصوير في الأرحام حدثًا مستمرًّا لا ينقطع؛ فكان المضارع الدالُّ على الاستمرار والتَّجدُّد هو المناسب.

الفرق في التَّعبيرِ بين ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ و﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾:

اخـتـلافُ زمـنِ الفعلِ بالنسبةِ لـلـمـخـلـوقِ لا بالنّسبة للخالقِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سببِ التَّعبير بالماضي في بعض المواضع: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، وعبَّر هنا بالمضارعِ الدَّالِّ على الاستقبال؟

والجواب: "أَنَّهُ لَا اعْتِبَارَ بِالْأَزْمِنَةِ فِي أَفْعَالِهِ، وَإِنَّمَا اسْتُعْمِلَتِ الْأَلْفَاظُ فِيهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْأَزْمِنَةِ بِحَسَبِ اللُّغَاتِ، وَأَيْضًا: فَصَوَّرَكُمْ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى نِسْبَةِ التَّقْدِيرِ، وَإِنَّ فِعْلَهُ تَعَالَى فِي حكم ما قد فرغ مِنْهُ، وَقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ عَلَى حَسَبِ مَا يَظْهَرُ لَنَا حَالًا فحالًا"[3].

سِرُّ التَّعبير عن تعلُّق التَّصوير بالمشيئة الإلهيَّة: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

مشـيـئـةُ الـلـه تعالى لا تخضعُ لأسـبـابٍ بل لإرادتـه الـتـي لا يُحيطُ بكُنهِها البشرُ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ "إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ فَقَطْ"[4]، ومعنى تصوير الخلق

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/7، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.
(3) الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/411.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/20.

﴿كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾، أي: "يصوِّركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قَبول الأحوالِ المتغايرة من كونكم نُطفًا ثم عَلَقًا ثم مُضَغًا غيرَ مخلَّقة ثمَّ مُخلَّقة، وفي الاتِّصاف بالصِّفات المختلفةِ من الذُّكورة والأنوثة والحُسن والقُبح وغيرِ ذلكَ منَ الصِّفاتِ، وفيه من الدّلالة على بطلان زعْم من زَعَم ربوبيَّةَ عيسى عليه السلام وهو من جملة أبناءِ النَّواسيتِ المتقلِّبين في هذه الأطوار على مشيئة الباري ﷻ وكمال ركاكة عقولهم مالا يخفى"[1].

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾:

دلالة كيف على الكيفيَّةِ المجرَّدةِ لحظًا لأصلِها اللُّغويّ

خرجتْ ﴿كَيۡفَ﴾ عن غرضِها في الاستفهام عن الكيفيَّةِ والحالِ، فهي "دَالَّة على مجرَّد مَعْنَى الْكَيْفِيَّة، أَي: الْحَالَة، فَهِيَ هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي أَصْلِهَا الْمَوْضُوعَة لَهُ فِي اللُّغَة؛ إِذْ لَا رَيْبَ فِي أَنَّ ﴿كَيۡفَ﴾ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُرُوفِ مَادَّةِ الْكَيْفِيَّة، وَالتَّكَيُّف، وَهُوَ الْحَالَةُ وَالْهَيْئَةُ"[2].

حذفُ المفعولِ لظهورِ معناه إيجازًا واختزالًا:

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾؛ "لِفَهْمِ الْمَعْنَى، التَّقْدِيرُ: كَيْفَ يَشَاءُ أَنْ يُصَوِّرَكُمْ"[3].

بلاغةُ التَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

تقريرُ التَّوحيدِ والقيُّوميَّة والحياة، للرَّدِّ على الزَّعمِ الباطلِ، والقولِ الآثمِ

ختمت الآية بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ هذه الفاصلة تدلُّ على طلاقة القدرة في التَّصوير، فالصُّورة الَّتي صوَّرها اللّه للخلق في أرحام الأمَّهات لا يأتي من يعارض، ويقول: عندي صورة أخرى؛ لأنَّ الذي صوَّر عزيز لا يغلب، وحكيم في فعله؛ لأنَّ التَّصوير في الأرحام أمر لطيف ودقيق، وهذا يحتاج إلى عزَّة وحكمة.

وجاء التَّذييلُ بقولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151 - 152.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/20.

"لِتَقْرِيرِ الْأَحْكَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ"[1]، و"كرَّر قولَه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّه لمَّا ذكر ما تقدَّم دليلًا على كون عيسى مخلوقًا، وكونه تعالى خالقًا؛ نبَّه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنْ لا معبود سواه، وأنَّه العزيز في نقمته، الحكيم في أمره، لا حاجة به إلى ولد، ولا حكمة تقتضي ذلك"[2]، "وَنَاسَبَ مَجِيئَهَا بَعْدَ الْوَصْفَيْنِ السَّابِقَيْنِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ؛ إِذْ مَنْ هَذَانِ الْوَصْفَانِ لَهُ؛ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِالْإِلَهِيَّةِ لَا غَيْرُهُ"[3].

التَّعقيب على التَّصوير بالعزَّة والحكمة إشارةٌ إلى كمالِ القدرةِ

ذكرتِ الآيةُ وَصْفَي العزَّةِ والحكمةِ بعد ذكرِ تصوير الخلقِ "إشارةً إلى كمال القدرةِ"[4]، في وصف العزيز، وأمَّا الْحَكِيمُ: فهو "أخصُّ بما ذكر من التَّصوير"[5]، و"أَتَى بِوَصْفِ الْعِزَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ النَّظِيرِ، وَالْحِكْمَةِ الْمُوجِبَةِ لِتَصْوِيرِ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْإِتْقَانِ التَّامِّ"[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/153.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/412.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.
(4) ابن عادل، اللباب: 5/27.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»